اسم الدرس : تفسير سورة يس (٥) | الآيات [٦٦ : ٨٣]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم،

بإذن الله عز وجل نستكمل تفسير "سورة يس".

كنا قد توقفنا عند قول الله عز وجل: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ * وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}[يس:٦٦-٦٨]

- في المرة السابقة تحدثنا عن تكرار كلمة {ٱلۡيَوۡمَ} في المقطع السابق كثيرًا للتركيز على اليوم الآخر؛ وأنه أكثر شيء ينكرونه، وأن أي دعوة للدين ليست مبنية على تعظيم اليوم الآخر هي دعوة فارغة من الأصل الهام للدين، وهو اليوم الآخر.

فأي دعوة للدين لا بد أن تكون الدار الاخرة فيها مركزٌ أصيل، وأن تكون هي المركز والأصل في الدعوة {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا}[لقمان:٣٣]، {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ}[الحج:١]، لا بد أن تكون الدعوة مبنية على تعظيم اليوم الآخر!

فلمَّا أنكروا اليوم الآخر تكررت كلمة "اليوم" خمس أو ست مرات في مقطعٍ قصير.

{ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ} [يس:٦٥].

ثم قال الله عز وجل: {وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ} [يس:٦٦]

قال كثيرٌ من المفسرين أن الخطاب القرآني بعد أن طوَّف بهم في الدار الآخرة؛ عاد بهم إلى الدنيا مرَّةً أخرى، ومن أهم سمات القرآن؛ كسر الحواجز الزمنية بين الدنيا والآخرة، فيتحدث عن الدنيا ثم ينتقل فجأة إلى الآخرة، ويعود للدنيا مرَّةً أخرى، فالتداخل في الأزمنة من أهم ما يميز الخطاب القرآني.

قال الله عز وجل {أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ} [النحل:١]، فتحدَّث عن اليوم الآخر بصيغة الماضي، وهكذا، يتحدَّث عن وقتنا هذا ثم عن الجنة ثم عن النار، ثم يعود إلى الدنيا ثم يُطوِّف مرة أخرى في السماء وفي الأرض ثم يعود إلى الدار الآخرة. هذه الطَّرَقات المتتالية على القلب تُفيق القلب الغافل!

- قال الله عز وجل: {وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ}[يس:٦٦]

قيل أن المقصد هنا تعبير مجازي؛ {لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ}، فالمثال حقيقي، لكنَّ المقصد الأساسي منه مجازي؛ فربنا سبحانه وتعالى يقول هو قادر على أن يطمس على الأعين، فيجعل مكانها مطموسًا – والعياذ بالله– فلا يبصرون شيئًا! فإذا أرادوا الوصول إلى الطريق المستقيم {فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ}، يحاولون أن يصلوا ويتسابقون إلى الصراط أي إلى الحق {فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ}، فلو أخزاهم الله سبحانه، وأعماهم، فلن يصلوا إلى الحق، فكأنه تهديدٌ لهم: لو استمريتم في الإعراض بعد كل هذا الوضوح، وكل هذه الآيات، فسيطمس الله على قلوبكم.

وهذه من العقوبات –والعياذ بالله– التي يُعاقب بها من يرى الآيات واضحات ثم يُصِرُّ ويستكبر {إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}[المدثر:١٨,١٩]! ففكّرَ واحتار، هل يكمل في الطريق أم لا! يقول أريد آيةً أخرى، فتأتي الآيات متتالية فيُعرِض! فإن رأى الإنسان الكثير من الآيات وأعرض طَمَس الله سبحانه وتعالى على عينيه –والعياذ بالله– فصار لا يُبصِرُ الحق! حتى وإن أراد الوصول للحق فلن يستطيع.

وقيل أن هذه العقوبة معناها حقيقي؛ {وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ}[يس:٦٦] فقد يُعمي الله عز وجل أبصارهم حقيقة، ثم يأتي العذاب، ويحاولون الهروب فلا يستطيعون، لأنهم لا يرون {فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ}[يس:٦٦].

وإذا قارنَّا هذه الآيات {وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ}[يس:٦٦] ، {وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ}،[يس:٦٧] مع بداية السورة {إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}[يس:٨,٩] ، فسنجد ترابط أول السورة مع آخرها، فقد وصلوا إلى قِمَّة الإعراض، فطَمَسَ الله على بصيرتهم.

- وقلنا أن هذا هو جوّ سورة يس؛ لأناسٍ طال عليهم الأمد بعيدًا عن النذارة، فجاءهم رسولٌ فأعرضوا عن كل الآيات التي رأوها، فطُمِسَ على قلوبهم! هذا هو جو السورة، فهو جوٌّ مليء بالظلمات والأذى والتعذيب لكلِّ من أراد قول كلمة الحق، لدرجة أن مؤمن آل يس قال لهم كلمة الحق فقتلوه!

المطلوب أن نفهم كيف يتعامل الدعاة وسط هذه الأجواء، وبأي شيء هم مطالبون، وهذا موجود في ثنايا السورة. فالمطلوب:

**١ كثرة الكلام عن الله وعن الآيات الكونية.

**٢والثبات بأن يكون الإنسان واثقًا أنه على الحق، كما كان أول السورة قسم: {إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ}[يس:٣]. *وعلى الدعاة أن يكونوا صفًّا واحدًا {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} [يس:١٤]، فلا ينبغي أن يحدث خلاف وقت الشدة، أو في وقت الأزمات.

وفي ختام السورة يُبَيِّن لنا الله مرَّةً أخرى مدى إعراضهم واستحقاقهم لهذه العقوبة!

{وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ}[يس:٦٦] بعض العلماء تساءل عن علاقة هذه الآية بما قبلها؟

كما سيختم الله عز وجل على أفواههم في الآخرة ويجعل الأيدي تتكلم، فإن الله عز وجل قادر على ذلك في الدنيا!

أي كما أنه قادر على أن يختم على الأفواه في الآخرة وسيحدث هذا لأُناسٍ -نعوذ بالله من ذلك-، فالله سيجعل الأيدي تتكلم وتشهد الأرجل عليهم -والعياذ بالله- فالله قادرٌ على أن يفعل ذلك في الدنيا، لكنه أجَّلَ العقاب للآخرة ولم يفعل ذلك سبحانه وتعالى، ولكن لو أراد لفَعَل سبحانه وتعالى.

ثم قال: {وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} [يس:٦٧] الله عز وجل قادر على أن يمسخهم قردةً أو خنازير في أماكنهم، وهم جالسون، وقيل: {عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ} أي في المكان الرفيع الذي يجلسون فيه؛ سواء كان جالسًا في منصب ملك أو في منصبٍ عالٍ أمام الناس، فالله عز وجل قادر في هذه اللحظة على أن يمسخهم ويتحولوا -والعياذ بالله- بكلمة {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ}[البقرة:٦٥].

تأمل كلمة {كُونُوا۟ قِرَدَةً}.. فأصبحوا قردة! مثل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟} [البقرة:٢٤٣]، ماذا كانت تكملة الآية؟

{فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} لم يقل الله عز وجل لهم "موتوا فماتوا ثم أحياهم"، لا، لم يقل الله في الآية كلمة "فماتوا"، لماذا؟ يقول العلماء: لأنه طالما قال الله سبحانه وتعالى {موتوا} فقد ماتوا، وطالما قال الله سبحانه وتعالى {كونوا قردةً} [البقرة:٦٥]، فسيكونون قردةً، جلودهم ستصير كجلد القردة -والعياذ بالله-، وسيمسخون!

إذا أراد الله عز وجل شيئًا فيكون سبحانه وتعالى، لذلك خُتِمَت السورة {إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ}[يس:٨٢] سبحانه وتعالى.

وهذا من الأمور التي لا بد للإنسان أن يستحضرها في جو الاستضعاف؛ قدرة الله المطلقة سبحانه وتعالى. فليس معنى أن الله عز وجل لم يُنَزِّل العذاب أن نَشُكَّ في القدرة، لا، {ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ}[محمد:٤].

عدم نزول العذاب العاجل لا يجعلنا نشك في قدرة الملك سبحانه وتعالى، بل نحن نوقن بذلك، فنحن نرى قدرة الله المطلقة في كل طلعة شمس، وفي كل بذرة تخرج، وفي كل جنين يولد، وكل نَفَس نتنفسه، وفي كل دقة قلب، أنت ترى قدرة الله المطلقة في كل شيء {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ}[الرحمن:٢٩] سبحانه وتعالى.

{وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا ولا يرجعون}[يس:٦٧] فهو لن يستطيع أن يُكمل في الطريق الذي اختاره –الصد–، ولا أن يرجع إلى الحق! {فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا} أي لا يستطيع أن يكمل في الصد عن سبيل الله، {ولا يرجعون} ولا يستطيع أن يرجع ويتوب، لأن العذاب قد نزل.

فهذا تهديد؛ كما أن الله عز وجل سيفعل بك في الآخرة إن استمريت في هذا الإعراض، فإنه عز وجل قادر أن يُعَجِّلَ لك العقوبة في الدنيا، فآمنوا خيرًا لكم، آمنوا بدلًا من أن ينزل عليكم العذاب كما نزل على قوم مؤمن آل يس عندما قتلوه. {وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ}[يس:٦٧].

- ثم يقول الله عز وجل: {وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس:٦٨]. اختلف العلماء في معنى الآية وما هي علاقتها بالسياق؟

المعنى الظاهر المتبادل لـ{وَمَن نُّعَمِّرْهُ}: أي من نزد له في العمر، فيصل لمائة وعشرين سنةً مثلًا، فمن تجاوزَ المائة فهو مُعَمِّر، أي عَمَّر في الأرض.

والمعنى الظاهر لـ{نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ} أنه كأنه يعود إلى الخلق الأول، فيبدأ جسمه يصغر ثم ينحف، ويبدأ العقل يقل في التركيز، والمعلومات تبدأ تقل لديه، يبدأ وكأنه يعود طفلًا مرةً أخرى.

{نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ}، وكأن هذه إشارة إلى سنة الله عز وجل؛ أن الشيء بعد أن يكتمل يبدأ يقل، كدورة القمر كما قال ربنا في نفس السورة {حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ}[يس:٣٩] أي كالقوس الأصفر الباهت الذابل كما نراه في عِذق النخلة إذا ذَبُلَ واصفرَّ وسَقَط. فهذه سنة ربنا سبحانه وتعالى، وهذا هو المعنى الظاهر.

ومن قالوا سنأخذ بهذا المعنى الظاهر فما علاقته بالسياق؟ من اختار من المفسرين أن المعنى مأخوذ على الظاهر؛ أن الله عز وجل إذا أطال عمر الإنسان عاد مرة أخرى وكأنه طفل وعاد إلى الخلق الأول، فما كان قولهم في علاقة ذلك بالسياق؟

- قالوا في معنى الآية أن الذي سيشك أن الله قادر على طمس الأعين أو يشك أن الله قادر على أن يمسخ الإنسان، انظر إلى خلقك أنت وأنت تتغير، فالذي يجعل الإنسان يتغير في الخلق.. الذي يجعل الإنسان يمر بالفترات المتغيرة فكان يحبو ثم يقف ثم يبدأ في التحرك ثم يكون شابًا ثم يكبر ثم يهرم ثم يعمر ثم يعود مرة أخرى، فالذي يفعل ذلك قادر على ذلك.

إذًا رابط هذه الآية بالتي قبلها.. قال بعض العلماء أن الذي يشك في قدرة الله في هذه الأشياء فلينظر إلى أشياء موجودة، وهذه هي طريقة القرآن، أن يطرح عليك شيئًا؛ مثلًا أن هناك بعث، ويأتي للمُنكِر بمثال حقيقي يشاهده يكون دليلًا على ذلك، فيقول له انظر لطلوع النبته، انظر ماذا كنت أنت وماذا أصبحت، بصق النبي صلَّ الله عليه وسلم في يده بصقة وقال: (يقول الله عز وجل : أنى تعجزني ابن ادم وقد خلقتك من مثل هذه)[1].

إذًا نحن لدينا أشياء نراها كدليل على البعث، فكذلك كما أن الله يأتي لهم بدلائل عملية واضحة على قدرته سبحانه وتعالى فهو قادر على طمس الأعين ومسخ الأجساد.

بعض العلماء قال أن المعنى ليس كذلك وقال أن المعنى وكأن الله عز وجل بعدما هددهم وقال لهم إن لم تؤمنوا سأطمس على أعينكم أو سأمسخكم، فأسرِعوا بالمبادرة قبل أن تصلوا إلى مرحلة من العمر لا تقدرون فيها على اتخاذ قرار الإيمان، فبادروا بالأعمال قبل أن يصل هذا العمر وينكس في الخلق مرة أخرى، وقد يصل الإنسان إلى مرحلة من الهذيان أو عدم القدرة على أخذ قرار الإيمان فبادروا بالأعمال.

[1] بزقَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ في كفِّه، ثمَّ وضعَ أصبعَهُ السَّبَّابةَ وقال: " يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أنَّى تُعجِزُني ابنَ آدمَ وقد خلقتُكَ من مثلِ هذِهِ، فإذا بلغت نفسُكَ هذِهِ وأشارَ إلى حلقِهِ قلتَ: أتصدَّقُ، وأنَّى أوانُ الصَّدقةِ

الراوي : بسر بن جحاش القرشي | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح ابن ماجه

الصفحة أو الرقم: ٢٢٠٥ | خلاصة حكم المحدث : حسن

فكأن معنى الآية {ومن نعمره ننكسه في الخلق} [يس:٦٨] بادروا بالإيمان قبل أن تصلوا إلى هذه المرحلة، وكأن الإنسان له فترات يستطيع فيها أخذ قرار الإيمان وفترات أخرى لا يستطيع.

فمثلًا عندما تكلم شابًا في الجامعة يكون من السهل عليه أن يتخذ قرارًا بالالتزام، أما بعد ذلك تكثر المسؤوليات، ثم يبدأ الإنسان بالتبرير والتحجج بالظروف والتأجيل لما بعد الزواج أو العمل أو الإنجاب أو السفر، ويؤجل ويؤجل ويؤجل وفي النهاية لا يلتزم ويموت -والعياذ بالله-، {ألهاكم التكاثر} [التكاثر:١] كان في لهو حتى مات {حتى زرتم المقابر} [التكاثر:٢]، هذا كان أحد معاني هذه الآية.

هناك معنى ثالث ذكره الإمام ابن عاشور في الآية يقول {ومن نعمره}[يس:٦٨] بمعنى من منكم سيظل موجودا -فالسورة نزلت في زمن الاستضعاف- فالإمام ابن عاشور يفسر معنى الآية بأن من سيظل على قيد الحياة منكم سنين طويلة ويستمر في إصراره على الشرك فسينتصر الإسلام والخلق كلهم -الخلق هنا بمعنى الناس- والخلق جميعًا سيؤمنون وهو سيبقى منكوسًا منفردًا -لوحده- في وسط المؤمنين، {ومن نعمره ننكسه} أي نجعله ذليلًا أسيرًا يعيش بين المؤمنين لأن المؤمنين سيكونون هم الأكثرية، ففسروا الآية بأنها بشرى بانتشار الدين، هذا قول الإمام ابن عاشور.

{ومن نعمره} أي من منكم سيظل على قيد الحياة مدة طويلة -هذه السورة نزلت في زمن الاستضعاف- {ننكسه في الخلق} [يس:٦٨] الخلق هنا بمعنى الناس، -فالخلق في العموم تأتي بمعنى الناس أو المخلوقات لكن هنا معناها الناس-، {ننكسه} أي يعيش ذليلًا منتكسًا، والمنكس هو من يضع رأسه في الأرض، فابن عاشور قال ننكسه أي يعيش ذليلًا بين الخلق لأن الخلق كلهم سيؤمنون، فهذا دليل على انتشار الدين، فكأن ربنا يقول لهم -على هذا المعنى- بادروا بالإيمان قبل أن تعيشوا ذليلين منتكسين وسط المؤمنين الذين سيفتح الله لهم وينشر دينهم.

كل ما سبق محاولات من العلماء لربط هذه الآية بسياق الآيات.

* {ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون} [يس:٦٨].

ثم قال الله عز وجل {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} [يس:٦٩] هنا نكون قد بدأنا بختام السورة، المعركة معهم طويلة؛ في البداية بدأت بالقرآن ثم رجعت مرة أخرى للقرآن، في البداية {يس ۞ والقرآن الحكيم} [يس:١,٢] يقسم الله بالقرآن الحكيم، كما ذكرنا التصرف في أوقات

الاستضعاف يحتاج إلى حكمة، فلا يقبل أي تصرف فيه نوع من عدم التفكير أو الروية، بل يحتاج إلى حكمة، {والقرآن الحكيم ۞ إنك لمن المرسلين} [يس:٢,٣].

المعركة الأساسية لهم مع القرآن، مع الوحي، لذلك قالوا {وما أنزل الرحمن من شيء} [يس:١٥] كان أول ما قيل منهم ردًا على المرسلين بأنه ليس هناك وحي، لأنه إذا كان هناك وحي إذًا سنُحاسَب عليه، إذًا هناك بعث، فإذا بعثنا فسنحاسب على هذا الوحي، فإن لم نستجب له فسنعاقب، فيجب أن ننهي هذه السلسلة وننكر الوحي أو البعث، وهذا فِعل المشركين الدائم في حل تلك الأزمة.

فبعد شوط طويل من النقاش معهم في الآيات الكونية وقدرة الله ونماذج السابقين الذين حاولوا نصر الدين، قد أكد ربنا بقوله {وما علمناه الشعر} [يس:٦٩] على معنى كلام ابن عاشور أن {ومن نعمره ننكسه في الخلق} [يس:٦٨] أن هذه الآية بشرى بانتشار الدين، فلن ينتشر الدين إلا بالقرآن، إلا بالوحي، فجاءت الآيات {وما علمناه الشعر وما ينبغي له} [يس:٦٩]، لماذا ذكر الشعر تحديدًا؟

هم افتروا على رسول الله كثيرًا -حاشاه صلَّ الله عليه وسلم- قالوا عنه ساحرًا وقالوا عنه كاهنًا وقالوا عنه مجنونًا، **لكن لماذا كانت أهم تهمة والتي احتاجت لدفاع هي الشعر؟ لماذا الشعر تحديدًا؟**

*-قال أحد الحاضرين- "لأنهم كانوا متفوقين في الشعر"..هذه نقطة.

*ثم إن معجزة الوحي هي كلام فما يمكن أن يختلط بالوحي هو الشعر لأنه كلام مثله.

السحر يمكن أن يكون فعلًا، وكذلك الكهانة فعل للاتصال بالشياطين، وقد كانوا يعتقدون في أن الشاعر البليغ يمكن أن يكون له علاقة بالشياطين فتتنزل عليه، وإذا تعجبوا من قدرة الشاعر في كل المواقف أنه يقول كلمات متزنة تخرج بمشاعر معبرة فكانوا يعتقدون أنه شيطان.

لذلك في سورة الشعراء في ختامها {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ۞ تنزل على كل أفاك أثيم ۞ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ۞ والشعراء يتبعهم الغاوون} [الشعراء:٢٢١-٢٢٤] قيل والشعراء الذين يتنزل عليهم الشياطين يتبعهم الغاوون، وسنستطرد في الحديث عن آخر الشعراء بعد قليل.

إذًا خطورة الشعر والتهمة بالشعر...

-سأوضح لكم بمثال-

عندما يتكلم أحد بالوحي فيتحدث عن الأخلاق والآداب المستمدة من الوحي وليس من خياله، ويتحدث عن القواعد في المعاملات، والولاء والبراء، من تحب؟ ومن تكره؟ وعلى أي أساس؟ تقاتل من؟ وتبعتد عن من؟ وتخضع لمن؟ وهكذا، فيعترض أحدهم ويقول: لا، هذه مجرد حكم أتيت بها في حالة صفاء للنفس أو بالتجربة البشرية، هي نوع من الحكمة لكنها قابلة للتغيير مع الزمن.

وهذه هي أخطر التهم.

لا، هذا وحي من عند الله لا نقدر على أن نتدخل فيه، هذه قواعد ثابتة لا تتغير على مدار الزمان.

إذًا لِمَ الرد عن شبهة الشعر مهمة؟ لأن الشعر كلام والوحي كلام، كلام الله سبحانه وتعالى، فالخلط بينهما خطر، لذلك جاءت سورة الشعراء بعد أي سورة؟ سورة الفرقان.

وسورة الفرقان جاءت بعد أي سورة؟ بعد سورة النور.

النور عندما يسطع على المجتمع يحدث فرقان، النور هو القرآن، ما معنى حدوث الفرقان؟ بمعنى أن يحصل تمايز بين الحق والباطل، ولقد تكلمنا سابقًا عن سورة الفرقان وعن كيفية حدوث الفرقان في الواقع، فكيف يلبسوا ويدلسوا على الناس بعد حصول الفرقان؟ بالشعر.

لذلك جاءت سورة الشعراء.

ما بين الأنبياء والشعراء فواصل.

الشعر حالة نفسية تأتي على الإنسان وعلى أساسها تخرج كلمات، ومهما كان ذلك الإنسان صادقًا فقد يكون في كلامه في الشعر عدم انضباط، الشعر انفعال، الشعر تقلبات، الشعر فيه نوع في بعض الأحيان من الهوى، نوع من الحمية، الوحي غير ذلك، الوحي كلام منضبط.

الشاعر قد يميل في كلامه إلى نوع من الحمية {إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية} [الفتح:٢٦]، لكن المؤمنين وصفهم ربنا بأنهم {وألزمهم كلمة التقوى} [الفتح:٢٦]، لذلك القرآن منضبط، منضبط في العلاقات فَيُحدِّد لك متى تغضب، ومتى تَكْظِم غيظك، متى يَحِقُّ لك أن تفعل هذا ومتى لا يَحِقُّ، ومتى يجوز لك أن تَتَصرَّفَ هكذا، ومتى لا يجوز.

فالدين لَيْسَ مُجرد حمية، بل لِكُلِّ شيءٍ ضوابطه، وأخلاقه، حتى في الحروب في أشدِّ اللحظات، فعندما ضرَبَ أحد المشركين سيدنا أُسَامة بن زيد في يده، فهَمَّ سيدنا أسامة أن يضربه، فقال المشرك "أشهد أن لا إله إلا الله"، فقتله أسامة، لأنه ظَنَّ أنه لم يقلها إلا بعد أن هَمَّ أسامة بقتله، فلما علم النبي –صلَّ الله عليه وسلم– غَضِبَ غضبًا شديدًا من أسامة –رضي الله عنه– وقال "يا رسول الله قالها تَعُوُّذًا"؛فقال: (يا أسامةُ قتَلْتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلّا اللهُ) !! قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ إنَّما قال مُتعوِّذًا فقال: (طعَنْتَه بعدَما قال لا إلهَ إلّا اللهُ) !! فما زال يُكرِّرُها حتّى تمنَّيْتُ أنْ لم أكُنْ أسلَمْتُ قبْلَ ذلك اليوم[٢]

يوجد وحي هنا، فهذا ليس من حَقِّك، تُوجَد ضوابط، فليس من حقِّك أن تقتله.

- إذًا الوحي فيه ضوابط، لكن الشاعر يُمكنه أن يتكلم بكلامٍ غير منضبط، ولذلك علَّمنا الله كيف نفرق بين الوحي وبين الشعر في ختام سورة الشعراء، وهذه قصة طويلة في سورة الشعراء تحتاج إلى أكثر من جلسة، لنتحدث عن سر تكرار كلمة {وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ} [الشعراء:١٠٩] في سورة الشعراء، والتي تكررت هنا أيضًا {ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا} [يس:٢١]، فأكثر شيء يمكن أن يُشِين الداعية، ويُلقَى عليه كتُهمة هو طلب شيء من وراء الدعوة، هذه النقطة الأولى في الشعراء.

النقطة الثانية: هي الآيات الطويلة التي في ختام سورة الشعراء، من {وإنه لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ} [الشعراء:١٩٢–١٩٥] إلى قول الله عز وجل: {هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ} [الشعراء:٢٢١]

أي أن هناك وحيًا من الشيطان يأتي للناس، ووحيٌ من الله يأتي للرسل، {هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ} [الشعراء:٢٢١,٢٢٢]، إذًا من يُكثر من الكذب، بل ويختلق الكذب، ويفعل الآثام لا يمكن أن تُصَدِّق ما يقول، فإن عُرِضَ لنا شخصان في التلفاز يوجهون الناس،

[٢] عن أسامة بن زيد: بعَثَنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الحُرَقةِ مِن جُهينةَ فصبَّحْنا القومَ فهزَمْناهم قال: ولحِقْتُ أنا ورجلٌ مِن الأنصارِ رجلًا منهم فلمّا غشِيناه قال: لا إلهَ إلّا اللهُ فكفَّ عنه الأنصاريُّ وطعَنْتُه برُمحي فقتَلْتُه فلمّا قدِمْنا بلَغ ذلك النَّبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: (يا أسامةُ قتَلْتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلّا اللهُ) !! قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ إنَّما قال مُتعوِّذًا فقال: (طعَنْتَه بعدَما قال لا إلهَ إلّا اللهُ) !! فما زال يُكرِّرُها حتّى تمنَّيْتُ أنْ لم أكُنْ أسلَمْتُ قبْلَ ذلك اليومِ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٤٧٥١ • أخرجه في صحيحه

ولا نستطيع التفرقة بينهما، ومنهم من يقول نوعًا من أنواع الحكمة، فالأفاك الأثيم هو من يختلق الكذب ويفعل الآثام، {هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ} [الشعراء:٢٢١-٢٢٣].

{وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ} [الشعراء:٢٢٤]

من هم الأتباع؟ انظر إلى أتباع النبي صلَّ الله عليه وسلم، هم سادة الناس؛ الصحابة! تأمل أخلاقهم ومعاملاتهم، فكما قيل "من ثمارهم ستعرفونهم" تأمل أتباع كل فريق، ومن يتأثر بهم، هل يطيعه ويتأثر به الفسقة المجرمون أم من؟!

فمن الذي يتبع الشعراء؟!

الغاوون

أي من يحب الغواية ويريد الضلال، فإنه يجد ما يريد عند فلان فيسمعه.

كيفَ نِصل لمرحلة أعلى في الرؤية في التفرقة بين الشعراء والأنبياء؟

{أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ} [الشعراء:٢٢٥]

من يهيم هو من يمشي بلا وجهة، فيتكلم عن كل ما يخطر بباله، ويكثر من السب وقذف الناس والافتراء عليهم، فهو يتكلم بدون ضوابط، عكس من يتكلم بالوحي، فلا يتكلم إلا فيما تكلم عنه الشرع، ويسكت عما سكت عنه الشرع، فمن الخطر أن يسكت الشرع عن شيء -حتى لو كان مباحًا- ثم تتكلم عنها بضابط، وتنسبها للشرع، أو يضع الشرع ضوابط لشيءٍ ما، وتدَّعي أنه لم يتكلم عنه، فهذا أخطر شيء (أن تتكلم في المسْكوتِ عنه أو تَسْكُت في المتَكلم فيه)!!! هذه نقطة خطيرة جدًا.

النقطة الثانية:

{وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ} [الشعراء:٢٢٦]

قلنا في أول السورة أن هناك طريقتين لتميز بهم الداعية الحق:

*{ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا} [يس:٢١].

*ويطبق ما يقول في الوقت ذاته حتى لو أدَّى هذا لإيذائه {وَهُم مُّهۡتَدُونَ} [يس:٢١] أي مهتدون بما يقولون.

فالله يقول في آخر سورة الشعراء

{أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ} [الشعراء:٢٢٥,٢٢٦]

فهو يتكلم عن أخلاق لا يطبقها ولا يفعلها؛ فهذا من أخلاق الشعراء، لأن الشاعر يتكلَّم لسانه بكثير الكلام، ويتكلَّم في كل ما يخطر بباله، ولا يطبق ما يقول، فيتكلَّم عن قمة الشجاعة وعن الفرسان، ولا يطبق ذلك.

{وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} [الشعراء:٢٢٦,٢٢٧] آمنوا بما يقولون، فصار الوحي مختلفًا عن الشعر، فالشعر كلام يخرج وقت الأزمة ووقت الانفعال، أما الوحي والقرآن فهو عقيدة، فإن اعتقدت بوجود الإيمان والكفر والحق والباطل، فحينئذٍ لا تتغير العقائد لأنها ثابتة، لا نسخ فيها.

{إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ}، وطبقوا ذلك {وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ}، {وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا} [الشعراء:٢٢٧] هذه من أهم الفوارق بين الشعراء والأنبياء، وأيضًا من سار خلف الأنبياء، فإنه يتكلم عن الله كثيراً.

فإذا قابلت أحدهم وأردت تقييمه، على الفضائيات مثلًا، فقيِّم ما قدَّمَه للناس خلال ثلاثين حلقة، وكم كان قدر كلامه عن الله، وتعظيم شرع الله، وتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وعن وجوب اتباع الدين الحق، وعن وجوب نصرة هذا الدين، وما يبذله الإنسان حتى يحترز من النار، ولكي يُنجِيه الله عز وجل في الدار الآخرة، انظر إلى قدر هذا في كلامه، {وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗاۖ} [الشعراء:٢٢٧] هذه أيسر نقطة تستطيع بها تمييز صدق من تقابله بسهولة وبسلاسة، وهل هو صادق أم منافق!

فهو يؤمن ويُطبِّق ويُكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى.

فحتى القرآن سبحان الله، نجد فيه سورة الأنبياء، والتي كان من المتوقع أن تتحدث عن بطولات الأنبياء، **فإذا بها تتحدث عن ماذا فعل الله للأنبياء!**

أي كم كانت حاجة الأنبياء لله؟ كم كانت حاجة سيدنا إبراهيم لله في هذه اللحظة!

وكم كانت حاجة سيدنا نوح لله!

وكم كانت حاجة سيدنا لوط لله!

وكم كانت حاجة سيدنا سليمان لله ليفهم تلك المسألة!

وكم كانت حاجة سيدنا أيوب لله!

وكم كانت حاجة سيدنا يونس لله!

وكم كانت حاجة سيدنا زكريا لله!

وماذا فعل لهم الله؟! فلو جُمِعَت الأفعال التي نُسبت لله في السورة وماذا فعل الله لأوليائه!

إن هذا لدلالة على أن هذا الكتاب حق.

- إذًا لنعد مرة أخرى لمسألة الفارق بين الأنبياء والشعراء..

انفعال الشاعر غير منضبط، وأهواؤه متقلبة، ويقول ما يخطر على باله، ويقول أشياء غير قابلة للتطبيق! وهذا خطر في قضية تربية الناس ووعظهم بقصص خيالية غير موجودة، كمن يَعِظ الناس بكلام خيالي غير قابل للتطبيق على أرض الواقع، فهذا أقرب إلى الشعر.

الوحي كلام منضبط؛ شرع وتشريعات وأخلاق وأعمال منضبطة صالحة للأرض طُبِّقَت بالفعل.

{وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} [الشعراء:٢٢٦] هؤلاء هم الشعراء، أما الأنبياء يقولون ما يفعلون، هذه الفوارق تجعل لديك نورًا للتفرقة بين الناس، لذلك عندما قال هنا {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ} قال {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس:٦٩]

تكلَّم العلماء عن معنى {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} فقال ابن عاشور: "أي لا يَتَأَتَّى له، ولا يستجيب للبغي منه -أي للطلب المِلح-، فلو طُلِب منه وأُلِحَّ عليه أن يقول شعرًا ما استطاع، لا يتأتى له الشعر.

{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} [الشعراء:٢١٠,٢١١] فمهما حاول الشياطين ذلك لن يستطيعوا في آخر الشعراء، وهكذا نجد التقارب بين السورتين.

{إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ} [الشعراء:٢١٢] لأن الوحي لا يتأتى بقوة نفسية أو كمال نفسي معين، فيستطيع الإنسان قَوْلَ الوحي، لا، فالوحي لا يأتي إلا بالتلقي، لذلك لما قال الله أن الشياطين لن يستطيعوا قَوْلَ الوحي، ماذا قال الله؟!

{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [الشعراء:٢١٠-٢١٢] طالما لن يسمع من الله، لن يَقدِر على قَوْلِ الوحي.

نعود مرة أخرى لقوله تعالى {وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ} [يس:٦٩]

هذه الآية {وما علمناه الشعر} بعض العلماء قالوا إن هذه الآية فيها نوع من الازدراء للشعر وبعض العلماء –وهم الأكثر– قالوا: لا! أحاديث النبي صلَّ الله عليه وسلم بها هذا وبها هذا؛ فيها أنه أثنى على الشعر ودعا لحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهما من الصحابة عندما كانوا يهجون المشركين، وسمع النبي صلَّ الله عليه وسلم شعرًا واستزاد منه وأثنى عليه.

وفي أوقات أخرى غضب النبي صلَّ الله عليه وسلم من آخرين ومنع ذلك، فقالوا الجمع على حسب ما يحتويه الشعر، والنبي –صلَّ الله عليه وسلم– قال ذلك: وإن من الشعر لحكمة[٣].

إذًا ما الفكرة؟ الفكرة هي أن الداعية المصدَّر يجب ألا يكون كلامه مختلطًا! فيستحب للداعية المصدَّر للناس الذي يتكلم بالوحي ويشرح الوحي ألا يخلط كلامه بكلام آخر!

وكإسقاط على الواقع.. كلام عملي؛ أنا أحب –فهمًا لهذه الآية– أن كلامًا كالكلام الفكري والتنمية البشرية لا يختلطان بالوحي، فيه ما يؤيده الوحي وفيه ما يضاده كما في الشعر ما يوافق الوحي وفيه ما يضاده، فاعزل هذا عن هذا، لا تخلط هذا بهذا، يُفضل للمصدر للناس ألا يخلط أمام الناس هذا بهذا، اجعل هذا الذي فيه جزء من الحق وجزء من الباطل مفصولًا، افصلهما ليكون الحق واضحًا، لأنك تطرح الحق للناس مما قال الله عز وجل، وما قال النبي صلَّ الله عليه وسلم، ومما هو مُجمَع عليه، ومن العلوم التي أشار إليها الوحي، حتى عندما توجه الناس لعلم من هذه العلوم فأنت بهذا تقول إن الوحي يشير إليها، وكما قلنا أن في الوحي نقاط مسكوت عنها! إذًا هي نوع من أنواع المباح.

هذه الأشياء التي ذكرتها لست بصدد الكلام عن ضبطها، لكنني أتكلم عمن يتصدر للناس يجب أن يكون كلامه صافيًا خالصًا حتى لا يختلط الوحي بأشياء أخرى عند الطرح على الناس.

{وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا} بصيغة الحصر والقصر {إلا ذكر وقرآن مبين} [يس:٦٩]

قالوا أن الوظيفة الأساسية للقرآن أن يذكرك بحقيقة وجودك، لأنك تنسى.. تنسى لم جئت، تنسى {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات:٥٦] ، تنسى الغرض الأساسي من وجودك، تنسى حقيقة الدار الآخرة، تنسى أنك ستبعث، إذًا وظيفة من يحمل الوحي أن يذكر الناس بهذه الحقائق! لا أن يساعدهم على الغفلة!

---

[٣] عن أبي بن كعب: إنَّ من الشِّعرِ لحكمة
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٠٣٨ • صحيح

فعندما تجد شخصًا تسعون بالمئة من خطابه يتكلم عن قيمة الدنيا! فهذا ليس المراد، هذا ليس من خطاب الوحي!

*لذلك خطاب القرآن له علامات، فمَن يتشرب خطاب القرآن ثم يخاطب الناس يكتسب هذه العلامات والأمارات.

أين تجد في القرآن أن تسعين بالمئة منه مدح في الدنيا؟ أين؟ أين هذا في القرآن! فإذًا لا تجعل الواقع يضغط عليك! لا تخاطب الناس طلبًا لرضا الواقع!

ارجع لمراد الله ثم خاطب الناس، وهذه أهمية التمسك بالوحي وأهمية التمسك بالقرآن وخاصة في زمن الفتن والابتلاءات.

{إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} [يس:٦٩] مبين: واضح، يجب أن يكون كلام الداعية واضحًا!

{وما علينا إلا البلاغ المبين} [يس:١٧] لا يخلط في الكلام؛ فلا يكون كلامًا غامضًا لا يصل إلى الناس.

الحق يظل واضحًا {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} [يس:٦٩].

{لينذر} أول وظيفة يقوم بها القرآن الإنذار، وهنا بقراءة حفص غير قراءة ورش، ففي قراءة ورش

{لتنذر} أي أنت: النبي صلَّ الله عليه وسلم، أما هنا القرآن هو الذي ينذر!

فيختلط الاثنان معًا كأنهم وحدة واحدة، الداعية والوحي يكون كلامهما واحد.

يعني قراءة ورش {لتنذر} أنت النبي صل الله عليه وسلم، و{لينذر} هنا ياء القرآن، فكأنهما شيء واحد قد اختلط!

هذا هو الداعية الحق؛ أن يختلط كلامه فيكون نسيجًا من كلام الوحي، فيتكلم بالوحي؛ لذلك قال الله عز وجل {فذكر بالقرآن} [ق:٤٥] فأصبح التذكير من خلال ماذا؟ القرآن.

{لينذر من كان حيًا} [يس:٧٠]

قيل من كان حيًا أي صاحب قلب حي لم يمت، لم يطمس على عينيه، ولم يمسخ قلبه، ولم يجعل بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا، كما في الآيات الأربع، الاثنتين في أول يس والاثنتين في آخر يس التي تتكلم عن قمة الإغلاق والعقوبات.

الحي: الذي لم يصل -والعياذ بالله- لهذه المرحلة.

{لينذر من كان حيًا}[يس:٧٠] والباقون إذًا لم سينذرهم؟ حتى يحق القول عليهم، حتى تأتي يوم القيامة لتشهد أنك بلغت لهم، تشهد أمام الله أنهم أصروا على الكفر.

إذًا هناك فارق أن هؤلاء طمس الله عليهم وفارق أنك أنت من تنذرهم؛ أنت مطالب أن تنذرهم أيضًا، لكن {ليهلك من هلك عن بينة} [الأنفال:٤٢] حتى يكون خطابك شاهدًا وحجة عليهم.

الدعاة حجة الله على الناس، فبنشر الدين تكون أقمت الحجة على الناس؛ فنشر الدين من أهم أسباب إقامة الحجة على الناس.

- {لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين} [يس:٧٠]

- ثم يقول الله -عز وجل-: {أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون} [يس:٧١]

عجيب هنا أصبح الكلام مرة أخرى عن الآيات؛ فنجد أن السورة فيها أكثر من مرة ذكر الآيات الكونية.

بدأت السورة بمقدمة ثم قصة مؤمن آل يس، ثم شوط عن الآيات الكونية، ثم نوع من المحاجَّة، ثم ذهاب إلى الدار الآخرة، ثم تقرير لقاعدة القرآن وأنه ليس بشعر، ثم عودة للآيات الكونية.

{أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما} [يس:٧١] قال بعض العلماء في معنى {مما عملت أيدينا} أن هذا فيه امتنان، مثلا كما تقول لأحدهم فعلت لك هذا بيدي ثم تكفر بها؟!

{خلقنا لهم}.

وبعضهم قال {مما عملت أيدينا} أن الله -عز وجل- خلقها بدون أسباب سابقة، قال لها "كوني" فكانت، أي خلقها بيده -سبحانه وتعالى-.

- {أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون} [يس:٧١]

ربنا هو من خلقها وهم امتلكوها! هذا من رحمة الله.

لم يخلقها لهم فقط! بل أيضًا {وذللناها لهم} [يس:٧٢]، انظر كيف يعطي ربنا لهم النعمة فهو من يخلقها بيده -سبحانه وتعالى-، ثم يملكها لهم، ثم يذللها لهم، ثم يعلمهم كيف يستفيدون منها في المأكل والمشرب والمنافع.

انظر لتمام النعمة، أربع خطوات: خلق وتمليك وتذليل وتعليم كيف يستفيد.

انظر لله عندما يعطي النعمة، ثم يكفرون بعد كل هذا.

{وذللناها لهم} تخيل إذا كان الجمل ليس مذللًا، فهناك حيوانات مفترسة أصغر من الجمل فكيف يكون هذا الحجم من الجمال والأبقار وغيرها من الحيوانات.. كيف تكون مذللة؟! والحصان مذلل للإنسان يركبه، كيف؟ لأن الله عز وجل ذلل ذلك، {وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون} [يس:٧٢] يركب هذا ويأكل هذا..

{ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون} [يس:٧٣] **هل شكروا ربنا؟!**

- العجيب أنهم ماذا فعلوا! {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون} [يس:٧٤].

معنى الآية أنهم لم يشكروا نعمة الله عز وجل ولكن بحثوا عمن ينصرهم، {واتخذوا من دون الله آلهة} ويمكن إسقاط هذه على كل أحد بحث عن آلهة سواء وثنية أو أرضية أو قوة في الأرض لتنصره.

قال النبي صلَّ الله عليه وسلم: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم)[٤]، وإن كان اتخاذ الآلهة هنا كفرًا، لكن هذا نفاق، فهناك من يتخذ من أشخاص آلهة {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} [التوبة:٣١] كانوا بشرًا لكن اتخذوهم أربابًا من دون الله ليشرعوا لهم.

الناس الآن تعبد القوة، فمن معه القوة يكون معه الحق؛ فيبحث الناس عمن معه القوة لا الحق لينصرهم -إلا من رحم الله-.

- {واتخذوا من دون الله آلهة} لماذا؟ {لعلهم ينصرون} [يس:٧٤] فربنا يقول لهم إن الآلهة هذه مهما بلغت قوتها سواء بشر، سواء القوة المادية، سواء الأسباب، سواء الأموال، كل هؤلاء لن يفيدوك بشيء، {لا يستطيعون نصرهم} أي أن الآلهة لن تستطيع أن تنصركم {وهم لهم جند محضرون} [يس:٧٥] نقف عند هذه الآية لأنها تحتاج وقفة.

ما معنى {وهم لهم جند محضرون} هذه الآية فيها أقوال كثيرة.

من {هم} ومن {لهم}؟

فعلى حسب من {هم} ومن {لهم} نفهم الآية.

{وهم} بعض العلماء قال: أي المشركون..

{لهم} لمن؟ للآلهة..

---

[٤] عن أبي هريرة: تعسَ عبدُ الدِّينارِ، وعبدُ الدِّرْهَمِ، وعبدُ الخميصَةِ، تعسَ وانتكَسَ وإذا شيكَ فلا انتقَشَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٣٥٣ • صحيح • أخرجه البخاري (٢٨٨٧) باختلاف يسير، وابن ماجه (٤١٣٦) واللفظ له

ماذا يفعلون؟ جند محضرون.

*فالمعنى: الآلهة لا تنصرهم بالرغم أنه هو من يدافع عن الآلهة!!

نأتي بمثالين؛ مثال قديم ومثال معاصر:

مثال قديم: الوثن، الصنم، هو يعبد الآلهة لتنصره على الأعداء، حسنا، عندما يأتي أحد ليكسر هذه الآلهة فمن يدافع عنها؟ هو!

أي {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون} [يس:٧٤] الآلهة {لا يستطيعون نصرهم وهم} بالرغم من أنهم يدافعون عنهم {وهم لهم} ماذا؟ {جند محضرون} [يس:٧٥] ملازم له، لأنه لو ابتعد عن الآلهة لحظة فالآلهة ستضيع! {وهم لهم} ماذا؟ {جند محضرون}

هذا معنى.

فهذا هو الإسقاط القديم للمعنى الأول.

الإسقاط المعاصر:

الطاغية الذي يظلم معه جنود، الجنود يسمعوه، وهم من يدافعوا عنه! إذًا كيف؟! إذا هم يسمعون كلامه لينصرهم، وهو من غيرهم يسقط!!

لذلك تكلمنا كثيرًا قبل ذلك في سورة الأنعام أن الحق سبحانه وتعالى هو القوي لا يحتاج إلى أحد؛ البشر قوتهم مستمدة من غيرهم، لو هذا الغير ذهب يسقط!! لذلك ربنا سبحانه وتعالى تأتي لحظة يُميت كل الخلائق؛ لأنه لا يحتاج إلى أحد، هو الغني –سبحانه وتعالى–؛ كل الخلق يموتون حتى الملائكة، حملة العرش، وجبريل، الكل يموت!؛ لأن الله لا يحتاج إلي أحد سبحانه وتعالى!

البشر إذا تركهم من حولهم يهلكوا.

- إذاً {وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ}[يس:٧٥] ؛ بعض العلماء قال كلمة جند هذه تأتي في الحرب لأن المعركة بين الحق والباطل صراع وليس وئام ووفاق، لن يحدث أبدًا توافق، لن يحدث أبدًا تجانس بين الحق والباطل، سيظل القتال مستمرًا إلى يوم القيامة.

من يريد أن يصالح بين الحق والباطل واهمٌ واهم؛ الحق والباطل متضادان؛ إذا جاء الحق زهق الباطل {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[الإسراء:٨١] ، {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[سبأ:٤٩] ؛ إذا جاء الحق الباطل ينصرف، والحل لإزهاق الباطل أن يجيء الحق؛ وليس أن

ينتظر الحق، أن ينصرف الباطل أولًا حتى يجيء، لا... كقول بني إسرائيل {فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة:٢٢] هذه طريقة تفكير الكسالى؛ لابد أن الحق هو الذي يهجم {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ} [الأنبياء:١٨].

إذاً المعنى الأول –مرة ثانية– للآية {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ}: لا تستطيع الآلهة أن تنصر المشركين، {وهم} أي والمشركون {لهم} أي للآلهة {جند محضرون} أي ملازمون للآلهة.

* المعنى الثاني للآية: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ}؛ أي لا تستطيع الآلهة أن تنصرهم يوم القيامة؛ يأتي يوم القيامة وتساق الآلهة بجانب المشركين؛ الأوثان والأشخاص بجانب بعضهم البعض؛ لو كان يعبد المال أو الأسباب أو الطغاة يكونون بجانبه يوم القيامة.

{لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} في الآخرة {وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ} [يس:٧٥]؛ بعض العلماء قال {وُهم} أي والآلهة {لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ}؛ أي سيصبحون أعداءً لبعضهم يوم القيامة، {ليكونوا لهم عزّا} [مريم:٨١] لكن ماذا حدث؟، {كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مريم:٨٢] ، {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا} [العنكبوت:٢٥]

فقيل أن معنى {وهم لهم جندٌ محضرون} [يس:٧٥] أي أن الآلهة تكون كالجند التي تحاربهم يوم القيامة، بمعنى أن الذي اخترته أيها الإنسان حتى ينصرك هو الذي سيكون ضدك يوم القيامة، ويكونون حصب جهنم الأحجار والأوثان –والعياذ بالله–.

إذًا كلمة {وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ}؛ إما أن معناها: هم المشركون جند عند الآلهة،

أو الآلهة تصبح أعداء للمشركين، وإن كان المعنى الأشهر {لا يستطيعون نصرهم}؛ لا تستطيع الآلهة أن تنصر المشركين بالرغم أن المشركين استنزفوا كل طاقتهم كي ينصروا الآلهة، وكي ينفعوا الآلهة... شيءٌ عجيب جدًا حقًا؛ أن يعبد الإنسان من يدافع عنه!؛ أي أن يعبد ما هو بنفسه يدافع عنه، هو جندي يعمل عنده.

- {وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ} [يس:٧٥] يعلمنا هنا مقدار تعلق جند أهل الباطل بآلهتهم؛ هو مقيم جندي ملازم؛ انظر إلى مجهود أهل الباطل للدفاع عن أوثانهم وعن آلهتهم وعن عقائدهم الفاسدة؛ جنود ملازمون لأهل الباطل وللأوثان الباطلة –والعياذ بالله–، {لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ} [يس:٧٥]

حسنًا، قبل أن نقول {فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ}..نحن ذكرنا دائمًا أن هناك علاقة بين الآيات الكونية التي تُذكر وبين السياق؛ قلنا أن الآيات الكونية التي تُذكر في القرآن لها دلالات شتى؛ الدلالة على البعث، قدرة الله، الامتنان، كثرة النعم؛ لها دلالات كثيرة، لكن في كل مرة تُذكر آيات كونية في سياق معين يكون لها إشارات.

كما ذكرنا {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ} [يس:٣٨] وهو مشابه لمؤمن آل ياسين فهو كالشمس التي تضيء والشمس تجري، والمستقر السجود... وتكلمنا في مسألة الترابط.

وهذه كلها بالطبع استنباطات.. إن وافقت الحق فمن عند الله –عز وجل– ومن توفيق الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا.

هنا تجد تناسقًا بين مشهد الأنعام المذلّلة لهم ومشهدهم وهم مذلّلون للآلهة؛ {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فهم لها مالكون() وذللناها لهم}[يس:٧١,٧٢] ، فعندما أعطاكم الله الأنعام؛ الله هو الذي خلقها وليس أنتم من خلقتموها، وبالرغم من هذا ذلّلها لكم، فأنت عندما تتذلّل لآلهة أو لطاغية أو لأي صنم هو لم يخلق!، هو لم يخلقك حتى تتذلّل له!

أنت تتخلى عن إنسانيتك؛ الإنسان ينزل إلى مرتبة الأنعام –والعياذ بالله–؛ عندما يتخلى عن إنسانيته، عندما يتخلى عن عبوديته لله، لابد أن يعبد شيئًا، الإنسان إذا تخلى عن عبودية الله لابد أن يعبد شيئًا؛ حتى لو سيعبد هواه، سيعبد نفسه، سيعبد المال، أو فأرًا، أو البقر، أو الطبيعة، سيعبد شيئًا... فأصبح مذلّلًا –والعياذ بالله–.

انظر إلى حديث: (تعس عبد الدينار)[٥]؛ تعس.. أصبح عبدًا لا يستطيع التخلص، أتعرف ما معنى عبد؟، العبد لا يسير إلا بإذن سيده، هذا هو العبد؛ فأصبح مذلّلًا كالأنعام؛ فربنا يقول لهم أنا كرّمتكم ورفعتكم وذلّلت لكم الأنعام، فتذهبون لتذلوا أنفسكم لغيركم!... سبحان الله!. {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} [يس:٦٠]؛ نحن ذكرنا سابقًا إما أن تعبد الله أو تعبد الشيطان، إما عبادة الرحمن أو عبادة شيطان، لماذا تذل نفسك؟؛ {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}[يس:٦٢] ، فقدت عقلك! {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}.

فهنا ربنا يقول أن الذي يسجد لغير الله، أو يذل نفسه لغير الله، أو يطيع في التشريعات غير الله، هو من أذل نفسه...

إذًا يقول الله –عز وجل– طاعة الله عز وجل والعبودية لله –عز وجل– رفعة.

[٥] سبق تخريجه صفحة٣٩

الذي يتخلى عن عبودية الله –عز وجل– والعياذ بالله يذل نفسه؛ ينزل إلى مرتبة كالأنعام بل هم أضل والعياذ بالله.

فقال الله –عز وجل– بعد أن بيّن هذه الآية وقال {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم} [يس:٧١]؛ ألا يرى؟، وهذه جاءت بعد {لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا} [يس:٧٠]؛ فالحي هو الذي يرى نعمة الحي عليه –سبحانه وتعالى–، الإنسان الحي هو الذي يبصر النعم وليس الذي يتغافل عنها.

- ثم قال الله –عز وجل– {فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ} [يس:٧٦]؛ هم يخططون ويدبرون حتى يهدموا الدين، ومعهم أموال وأنت في وقت استضعاف، وأنت لا تعلم، سواء الأقوال التي تصلك تؤذيك، أو بقولهم عليك شاعر، أو باتهامهم لك، ويقومون بهجمة إعلامية شرسة للتقليل من شأنك أو للافتراء عليك...

فالداعية قد يحزن في هذه اللحظة؛ ذكرنا أنه من أهم الحكم من سورة يس معالجة الداعية نفسيًا في وقت الاستضعاف؛ أن يكون ثابتًا لأن الأزمة تكون شديدة!

فربنا يقول له لا تحزن {فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ}؛ الحزن نوع من الهم قد يصيب الإنسان فُيقعده و يُحبطه.

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا}؛ بالرغم من أنهم مهزومون في أحد {وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}، ولكن نحن مغلوبون؟!..{إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[ال عمران:١٣٩]

بحفاظك على العقيدة أنت الأعلى، حتى لو نالوا منك في مرحلة من المراحل.

فيقول الله عز وجل لا تحزن، إياك أن تحزن، أو أن تحبط، وأن تيأس...

ولكنهم معهم كل الأموال، معهم كل القنوات، معهم كل المواقع، مسيطرون على كل شيء!، {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [يس:٧٦] أنت معك الله !

لذلك عندما نقول متى يحزن الداعية؟؛حينما ينسى قدرة الله، حينما يحاربهم بقوته لا بمعيته –سبحانه وتعالى–، حينما يحارب أهل الباطل بقوته الشخصية لا بمعية الله؛ هنا يحزن الداعية لأنه يستصغر قوته. ويشعر أنه لا يملك شيئًا وهم يملكون كلّ شيء! فيَحزَن، ويُحبَط، لا، لأنه يجب أن يتذكَّر أن الله معه كل شيء، وأنهم في وسط الكون لا شيء ولا يملِكون شيئًا، فهم نكرة في الكون، والكون كله يسبح بحمده سبحانه وتعالى {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء:٤٤]، {لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} [الإسراء:٢٢]، قالوا مذمومًا: أي أنَّ الكون كله يذمه، فهو نكرة، بل هو شاذ عن الكون كلِّه.

{فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} هو المشرِك والعياذ بالله.

- يقول الله –سبحانه– {فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ} [يس:٧٦]: إياك أن تُحزِنك أقوال أهل الباطل، ودائمًا يعتمد أهل الباطل على القول، –وهو إعلامهم– ليَصُدُّوا الناس، ويمنعوك من دعوتهم.

قلنا أن القول هو الاستهزاء، التكذيب، ثم القوة.

{فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا} نون العظمة {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [يس:٧٦] وبدأ بالسر قبل الإعلان؛ فمهما أَسرُّوا ومَهمَا خطَّطُوا ومهما دَّبروا ومكروا، فالله عزَّ وَجلَّ محيطٌ بهم {وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ} [البروج:٢٠]، وهذا يطمئن الداعية، ولكن لا يصحُّ الخلط بين البرود وعدم نصرة الدين واللامبالاة و"للبيت ربٌّ يحميه" وبين التوتر النفسي، فلا هذا ولا ذاك، فلا ينبغي أن تكون متوترًا وفاقدًا لأعصابك ،أو مُحبطًا ظنًّا منك بانعدام الأمل، أو الجهة الأخرى أن تترك الأمر لأنه لا يعنيك، لا، فالاطمئنان أن تحمل همَّ هذا الدين وأنت مُطمئنٌّ بالله سبحانه وتعالى، مُوقِنٌ أنَّ الحق سينتصر.

- ثم قال الله عز وجل {فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [يس:٧٦]

ختام السورة {أَوَ لَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ}، فماذا كان أصله! {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} [يس:٧٧] هذه الآية سبقت قوله –تعالى– {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ} [يس:٧٨]

ماذا فعل المجرم؟ تأمل ما يفعله الإعلام ليهدم الدين: لم يكتفِ بإنكار البعث، لا، نفَّذَ عرضًا إعلاميًا، أحضر عظامًا أمام الناس كلها، وفتتها أمامهم، ثم جاء بعظم قد أَرَمَّ، أى أصبح رميمًا، تُسمى ألف الصيرورة، أى صارَ رميمًا؛ أصبح ترابًا، وأمسكه أمام الناس ثم ضَغَطُه هكذا، وقال تزعم يا محمد أن هذا يُبعث؟!

فيقول الناس، هذا غير ممكن، وكيف يحدث هذا!! فالناس يتأثرون بهذا الضغط.

لذا ضرب الله قبلها نفس المثال، انظُر إلى المنيّ، انظر إلى النطفة، وكيف تحولت لإنسان، لماذا لم تتعجب من أنك كنت نطفة وتعجبت من البعث، لماذا؟ {وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ}

هل نسيتَ نفسَك؟؟

نفس المشهد حدث عندما بصَقَ النبيُّ صلَّ الله عليه وسلم في يده، تأمل هذا، فإن استعملوا هم وسائل وكانت مُبَاحة، إذًا يجب أن تستعملها أنت أيضًا! هو أمسك العظام وفتتها، والنبيُّ صل الله عليه وسلم بصَقَ في يده، وقال (يقول الله عز وجل: آنَّى تُعجِزُنِي ابن ادم وقد خلقتك من مثل هذه؟!)[٦]

نفس المشهد، فأنت استخدمت التراب والطين، وهو ما يكافئ البصقة التي تُصوِّرك لما كنتَ نطفة، وبدأ القرآن بالحقيقة {أَوَ لَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا}[يس:٧٧] (إذا) هذه هي (إذا الفجائية)، بعد أن كنتَ نطفة تُجادل في قدرة الله {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}![يس:٧٧]

صارَ لهُ لسان مفوَّه يُنكر البعث ويُنكر وجود الله ويُلحِد وينكر الشريعة -والعياذ بالله-، إذًا من هو الذي خلقَكَ؟ ومن الذي ربَّاك فى بطن أمِّك؟ ومن الذي يرزقك؟ ومن الذي أنعم عليك؟ -سبحانه وتعالى-.

{فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} شيء عجيب جدًّا.

لو أحضرت شخصًا من الشارع لا مأوى له ورَبَّيتَه، وأنفقتَ عليه، ثم بعد ما كبر أنكر فضلَك عليه، ستقول له الآن تُخطئ في حقِّي! وأنت لم تفعل له شيئًا إلا بعض النعم الظاهرية، فكيف بمن خلقه! وأوجده من عدم! من جعله إنسانًا بعد أن كان عدمًا! {أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا} [الكهف:٣٧] كيف تكفر به وقد سواك رجُلًا!

فيقول الله عزَّ وجلَّ {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} [يس:٧٧] وليس خصيمًا مبينًا فقط، إنما يجادل أيضًا، {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ} [يس:٧٨] ذهب إلى النبي صلَّ الله عليه وسلم يقول له {مَن يُحْىِ ٱلْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ} [يس:٧٨] من الذي سيفعل هذا!

تأمل الرد القرآني، قلنا أنه أحضرَ ترابًا -مهما اختلف المفسرون من الذي قال- فقد قيل أن هذا المثل تكرَّرَ في مكة والمدينة كثيرًا لأنهم أُعجِبوا به، {قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ} من أنشأها أوَّلًا يُعيدها مرةً أخرى، {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[يس:٧٩].

أن تقول أن العظام إذا صارت ترابًا ضاعت، لا، فالله أعلم أين ذهبت كل ذرةٌ منه، {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} ويصير إنسانًا من عجب الذنب مرة أخرى، وحديث[٧] الرجل الذي اقترف ذنوبًا وقبل وفاته قال

---

[٦] سبق تخريجه صفحة ١٢

[٧] عن حذيفة بن اليمان: إنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ المَوْتُ، لَمّا أيِسَ مِنَ الحَياةِ أوْصى أهْلَهُ: إذا مُتُّ فاجْمَعُوا لي حَطَبًا كَثِيرًا، ثُمَّ أوْرُوا نارًا، حتّى إذا أكَلَتْ لَحْمِي، وخَلَصَتْ إلى عَظْمِي، فَخُذُوها فاطْحَنُوها فَذَرُّونِي في اليَمِّ في يَومٍ حارٍّ، أوْ راحٍ، فَجَمعهُ اللَّهُ فقالَ: لِمَ فَعَلْتَ؟ قالَ: خَشْيَتَكَ، فَغَفَرَ له. قالَ عُقْبَةُ: وأنا سَمِعْتُهُ يقولُ: حَدَّثَنا مُوسى، حَدَّثَنا أبو عَوانَةَ، حَدَّثَنا عبدُ المَلِكِ، وقالَ: «في يَومٍ راحٍ»

لأولاده: إذا مِتُّ فحَرِّقوني ثم انثروني أي اطحنوني، ثم ذروا نصفي في البحر ونصفي في البر، فقال الله عزَّ وجلَّ له "كن" فقام بين يديه، سبحان الله! وقال للأرض اجمعي ما فيكِ وقال للبحر اجمع ما فيك وقام بين يديه سبحانه وتعالى {ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٩].

عجيبٌ جدًّا قول الإنسان، فإذا قرأت مثلًا أقوال الملحدين تجد عجبًا، تسأله عن كيفية بدء الكون، فيراوغ ويراوغ لدرجة أن أحد مشاهيرهم يقول لعلها مخلوقات فضائية خَلَقت الأرض والسماء وخلقتنا ثم رحلت!

فتشعر كأنك تريد أن تقول له هل أنت مختل عقليًا؟

لم قال هذا؟! لأن ما يهمه ألا يلتزم بوحي، فمن خلقنا رحل بعيدًا، لذا يقول الفلاسفة القدماء نعم، خُلِقنا، لكن من خلقنا لا علاقة له بنا، ذهب، إلى أين؟ لا يهم؛ المهم أنه ذهبَ. فإذا انتهى إلى تلك النقطة قال أنه لا وحي ولا بعث ولا حساب وهذا ما يُريد إثباته.

والله قد قيلت تلك الكلمات من كبار الملحدين.

شيءٌ عجيبٌ جدًّا {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ} [يس:٧٧] ويضرب الأمثلة، وينسى خلقه!

- {قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٩]

أخبرهم الله أن الخلق قد يأتي من المتضادات فكيف تتعجب من التراب!، فيضرب الله له مثلًا آخر {ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا} [يس:٨٠] تأمل الكلمتين المتجاورتين! الأخضر صار نارًا، الشجر الذي يُقدح به، فبعض الأنواع من الشجر كانت العرب تقدح بها وهي المرخ أو العفار أو أحدهما يوضع فوق الآخر، ويضربوهم ببعض، لتقدح النار، وهو شجر! أي كان بذرة ثم أنبتت شجرة، فصارت نارًا فمن الذي أوجد قدرة النار بداخلها؟ الله سبحانه وتعالى، وأنت ترى هذا!

لذلك الكون هو كتاب الله المنظور الدَّال على قدرة الله سبحانه وتعالى، كما أن كتاب الله المقروء هو القرآن فالكون هو كتاب الله المنظور.

قلنا أنهم كلما أنكروا شيئًا، ضرب الله لهم مثلًا منظورًا أمامهم، كإنكار الإهلاك للسابقين، فقال لهم أنتم تمرون على مواطن إهلاكهم، فالله قد نجَّى فرعون -أي جُثَّته- بعد ما أُهلِكَ وغَرِقَ حتى تكون آية

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٤٧٩ • [صحيح]

{فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ} [يونس:٩٢].

مواطن آثار السابقين المهلَكين موجودة ليراها من يُنكِرْ الإهلاك، ومن يُنكِر البعث، فالبذرة أمامه فليضعها في الأرض، والمني يخرج منه بنو آدم، ومن يُنكِر تَحوُّل التراب لإنسان، فالله يقول له أن الشجر الأخضر يصير نارًا، فالكون أمامك.

لذلك لما أعجَزَ هذا المثال الملحدين قالوا إذًا فالكون أيضًا خُلِق وحده بنفس الطريقة، ولا يزال يبحث كيف خُلِق الكون؟! ويزعم أي شيء، والإجابة هنا بين أيدينا في القرآن.

وستظل البشرية تائهة تبحث عن هذه الإجابة إذا ابتعدت عن نور الوحي، وعن كلامه سبحانه وتعالى.

{فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ} [يس:٨٠]

في ختام السورة {أَوَ لَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ} [يس:٨١] قال بعض المفسرين أن الضمير في "مثلهم" يعود على المشركين، فليس المقصود على السماوات والأرض، لأنهم ينكرون أنهم قد خُلِقُوا، فيقول الله لهم أن الذي خلق السماوات والأرض هو أقدر على أن يخلق مثلك! سبحان الله!

فإذا ذهبت إلى مصنعٍ ضخم عظيم يصنع أحدث أنواع السيارات وأحضرت له درَّاجة، ثم سألته هل تستطيع أن تصنع مثل تلك الدراجة؟! فسينظر إليك مُتَعجِّبًا.

سبحان الملك.. تأمل، إن الذي خلق السماوات والأرض باتساعها، فما هو حجمك نسبةً إلى السماوات والأرض {لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ} [غافر:٥٧] كثيرًا.. ملايين المجرات والكواكب والشموس والنجوم، {أَوَ لَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ} [يس:٨١].

وقيل مثلهم أي مثل السماوات والأرض، أي أن يخلقهم الله مرة ثانية {بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ} [يس:٨١] سبحانه وتعالى.

ختام السورة {إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن} [يس:٨٢]

هذة الكلمة التى يكفر بها المشركون، والتي يكفر بها الملحدون، والتي يكفر بها كثير من الناس، ويطمئن بها المؤمن، هذه الكلمة تُرِيح المؤمن جدًّا! كلمة كُنْ، فهو يعلم أن كل شيء ينتهي بِكُنْ، يعلم أن كل مشاكله تنتهي بكُنْ، فيشعر بالراحة، مهما عظمت المشكلة ومهما صَعُبَ الداء واستعظم الحل، فإنه

يتذكر هذه الكلمة التي خلق بها الكون، فيهدأ ويطمئن.

"كُنْ" فيَكُون.

المؤمن مطمئن، قلنا أنك لا تملك شيئًا من الأسباب وقت الاستضعاف، لكنك معك معية الله! هذه الكلمة التي تشق البحر، وتمسخهم قردة -إذا أراد سبحانه وتعالى- {أَنْ يَقُولَ لَهُ}.

انظر {إِنَّمَا أَمْرُهُ} فإذا أراد سبحانه يكفي أن يَقُولَ فقط! وبهذا القول منه سبحانه تُحَلُّ كل مشاكلك، {أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [يس:٨٢].

وفي ختام السورة كأن المؤمن لم يَعُد يعبأ بالمشركين، فليقولوا ما أرادوا، فلقد أَوْضَح لهم وبَيَّنَ لهم، فالمؤمن مُوقِن بمنهجه وعقيدته، فتُختَم السورة بالتسبيح، وبتنزيه الله.

ركَّزنا على معنيين طوال السورة:

١. قدرة الله المطلقة

٢. البعث

فخُتِمت السورة بهما {فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [يس:٨٣] ولا زلت تُذَكِّرهم أنهم سيرجعون إلى الله طوال السورة، فإذا أصرُّوا على إعراضهم، قلت لهم أيضًا في آخر السورة وأنت تتركهم "سنتقابل هناك" {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، {فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي} ليس في يده، وإنما {بِيَدِهِۦ} ففيها سلاسة، فالملك بيد الله.

{ملكوت} مشتقة من الملك، فالتملك هو أن يكون كل شيء لله، يفعل فيها ما يشاء {إِنَّا لِلَّهِ} فنحنُ ملك لله سبحانه وتعالى.

{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ} [البقرة:١٥٦] نفس المعنى الذي خُتِمت به السورة {فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}، وملكوت صيغة مبالغة من المِلك: أي يملك كل شيء سبحانه وتعالى، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس:٨٣].

نختم هذه السورة سورة يس

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، أسأل الله عز وجل أن يرزقنا حفظ القرآن، وفهم القرآن، والعمل بالقرآن، والشفاء بالقرآن، والمجاهدة بالقرآن، وتطبيق القرآن، وأن يرفعنا في الجنة بالقرآن، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.